تدبر المعاني في السبع المثاني

د. رقية طه جابر العلواني

هذا الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

هذا الكتاب مواصلة – ندعو الله أن يكللها بالتوفيق والقبول- لما كنا قد بدأناه في مشروع تدبر القرآن الكريم. وهو نتاج دورة عملية قمت – بفضل الله- بالإعداد لها وتقديمها تحت إشراف جميعة النور للبر في مملكة البحرين.

وقد جاءت الدورة ضمن سلسلة دورات تطبيقية في هذا العلم الغض، يتم تناول سورة معينة في بعض هذه الدورات كنموذج عملي تطلع من خلاله المشاركات على كيفية التدبر وتعلم أصوله وقواعده. وقد أسهمت المشاركات ممن قاربت أعدادهن على الثلاثمائة مشاركة في تقديم بعض التدريبات التي تبين محاولاتهن الجادة في النهل من معين هذا العلم والسعي إليه، وفق الله الجميع لكل ما يحبه ويرضاه.

ولا يفوتني في هذا الصدد أن أشير إلى أن هذه الإصدارات مجرد محاولات لتقريب مفهوم التدبر في كتاب الله إلى الأذهان. ولا تزال الحاجة ملحة لمزيد من الجهود والدراسات لجعل التدبر غاية تتوق إلى سبرها العقول والأفهام. شكر الله للأخوات القائمات على جميعة النور المباركة اللواتي بذلن جهودا متواصلة في سبيل تنظيم هذه الدورة وغيرها من دورات في التدبر وتولين إصدار هذا الكتاب إنه سميع مجيب.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث بالكتاب المبين الفارق بين الهدى والضلال والغي والرشاد والشك واليقين، أنزله لنقرأه تدبرا ونتأمله تبصرا ونسعد به تذكرا ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول فلا يغلق إذا غُلقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذي لاتميل به الآراء والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء لا تفنى عجائبه ولا تقلع سحائبه ولا تنقضي آياته ولا تختلف دلالاته كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفكيرا زادها هداية وتبصيرا، وكلما بجست معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيرا فهو نور البصائر من عماها وشفاء الصدور من أدوائها، أسمع والله لو صادف آذانا واعية وبصر لو صادف قلوبا من الفساد خالية.

وبعد

فإن الغاية من إنزال القرآن الكريم تدبره وفهم معانيه وتطبيقها في الحياة علما وعملا. ولما كانت فاتحة الكتاب أولى سوره وآياته ترتيبا في المصاحف، وأكثرها تلاوة في الصلوات، كان البدء بها نموذجا للتدبر في سلسلة كيف نتدبر القرآن.

ولعل المتدبر في كتاب الله، يلحظ سير الخطوات التي قمنا بها في تدبرنا لأم الكتاب. وهي خطوات مستنبطة مما قام به العلماء السابقون رحمهم الله في هذا المجال، وأشاروا إليه في مؤلفاتهم وكتبهم. ولعلّ حصر هذه الخطوات في هذا الكتاب من خلال تطبيقها في تدبر السورة، يسهم في تقريب كيفية التدبر والتدرب على أصوله واستعمال قواعده لتكون نموذجا يمكن السير عليه فيما بعد لمن أراد الاستزداة.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أهمية الالتزام بالرجوع إلى أمهات الكتاب ومعاجم اللغة والتفاسير المعتبرة قبل الشروع في تدبر الآيات، فالتدبر علم له أصوله وقواعده والعلم بالتعلم من وسائله وطرقه التي شرعها الله لعباده والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

فضل سورة الفاتحة

وردت أحاديث عدة في فضل هذه السورة التي افتتح الله بها كتابه الكريم فجعلها بمنزلة ديباجة الكتاب متضمنة لمقاصده ومعانيه قاطبة فكانت بحق أم الكتاب. كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثني على عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدي يقول العبد إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله **فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل"**[1].

ونقل ابن تيمية رحمه الله عن بعض السلف قولهم:" إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله إياك نعبد وإياك نستعين وهاتان الكلمتان الجامعتان اللتان للرب والعبد..."[2].

ثانيا: البحث في أسماء السورة

يعد البحث في أسماء السور من أولى الخطوات التي ينبغي للمتدبر في القرآن الكريم مراعاتها. حيث أن اسم السورة مرتبط ارتباطا وثيقا بأهدافها ومحاورها الأساسية. وغالبا ما يكون اسم السورة طابعا خاصا لمحورها الأساسي. يقول البقاعي رحمه الله في ذلك:" ظهر لي ....أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه.."[3].

وأسماء السور جعلت منذ عهد نزول الوحي وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا نزلت الآية:" ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا"[4]. فسورة البقرة مثلا كانت تلقب بالسورة التي تذكر فيها البقرة.

وأصل أسماء السور أن تكون بالوصف ثم شاع فحذف الموصول وعوضوا عنه الإضافة ثم حذف المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه فقالوا سورة البقرة. وقد ثبت في صحيح البخاري قول عائشة رضي الله عنها:" لما نزلت الآيات من آخر البقرة الحديث"[5]. وفيه عن ابن مسعود أنه قال قرأ رسول الله النجم وسجد بالنجم[6].

وقد ترجم البخاري في كتاب فضائل القرآن بقوله:" باب من لم ير بأسا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وسورة كذا"[7]. وأخرج فيه أحاديث تدل على أنهم قالوا سورة البقرة وسورة الفتح.

وسورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة فقد أوصلها السيوطي في الإتقان إلى نيف وعشرين بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف، كما ذكر الرازي في تفسيره 12 اسما للفاتحة، منها الشفاء والدعاء والصلاة والسؤال والشكر والأساس.[8]

إلا أنه لم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا: فاتحة الكتاب، السبع المثاني، أم القرآن، أم الكتاب.[9]

فأما تسميتها فاتحة الكتاب فقد ثبتت في السنة أحاديث كثيرة منها ما أخرجه مسلم والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:" بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال فنزل منه ملك فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ منهما حرفا إلا أعطيته"[10].

وفاتحة مشتقة من الفتح وهو إزالة حاجز عن مكان مقصود ولوجه، فصيغتها تقتضي أن موصوفها شيء يزيل حاجزا وليس مستعملا في حقيقته بل مستعملا في أول الشيء تشبيها للأول بالفاتح. والفتح بمعنى إزالة الإغلاق والإشكال وذلك ضربان: أحدهما يدرك بالبصر

كفتح الباب، والثاني يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم. وفاتحة كل شيء مبدؤه الذي يفته به ما بعده وبه سمي فاتحة الكتاب[11].

وهذا الاسم في غاية التناسب مع صدارة السورة للكتاب الكريم وافتتاحه بها، فهي **فاتحة بالجعل النبوي** في **ترتيب السور** حيث أن سور القرآن قد رتبت بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا. فهي بمنزلة ديباجة الكتاب خاصة وأنها تضمنت أصول مقاصد القرآن.

ومن أسماء هذه السورة الصحيحة كذلك السبع المثاني، فقد جاءت هذه التسمية في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت قال فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال قلت يا رسول الله إني كنت أصلي قال ألم يقل الله تعالى: "يَا أَيهَا الذِينَ آمَنواْ اسْتَجِيبواْ لِلّهِ وَللرسول إِذَا دَعَاكُم لِمَا يحْيِيكُمْ وَاعْلَموا أَن اللّهَ يَحولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأنه إِلَيْهِ تحْشَرونَ". (الأنفال: 25) ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن: قال نعم " الحمد لله رب العالمين" هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"[12].

ووجه تسميتها بذلك أنها سبع آيات باتفاق القراء والمفسرين، فمن اعتبر البسملة من الفاتحة أدمج آيتين، ومن لم يعتبرها فهي سبع آيات.

أما المثاني فهي جمع مثنى وهو مشتق من التثنية وهي ضم ثان إلى أول ووجه الوصف أن تلك الآيات تثنى في كل ركعة، وقيل أن هذا مأثور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[13].

أما تسميتها بأم القرآن أو أم الكتاب فقد ثبتت في الحديث الذي- سبق ذكره- أخرجه الإمام مسلم والنسائي وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام فقيل لأبي هريرة إنا نكون خلف الإمام فقال: إقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال

الله حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي فإذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدني عبدي وقال مرة فوض إلي عبدي فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذن أنعمت عليهم قال الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل".

وقد ذكر العلماء لتسميتها أم القرآن وجوها ثلاثة:

الأول: أنها مبدؤه ومفتتحه فكأنها أصله ومنشؤه، يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ فيكون أم القرآن تشبيها بالأم التي هي منشأ الولد لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود.

الثاني: أنها تشتمل محتوياتها مقاصد القرآن التي هي على ثلاثة أنواع: الثناء على الله عز وجل ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، وإثبات تفرده بالإلوهية وإثبات البعث والجزاء، والأوامر والنواهي وهذا كله أنواع مقاصد القرآن كله.

الثالث: أنها تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحِكم النظرية والأحكام العملية فمعاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها وإما أحكام يقصد منها العمل بها، فالعلوم كالتوحيد والنبوات ..والأحكام إما عمل الجوارح كالعبادات والمعاملات وإما عمل القلوب من تهذيب الأخلاق وما يتصل بذلك.

وجاء مثله في فتح الباري من اشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى والتعبد بالأمر والنهي والوعد والوعيد وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفضل واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش[14].

والمتدبر في السورة يصل إلى مناسبة تسميتها بأم القرآن فالأم منشأ الشيء وأصله وقد تناولت الفاتحة جميع المعاني والمقاصد التي تناولتها بقية سور الكتاب الكريم.

كما أورد ابن حجر للفاتحة أسماء أخرى جمعت من آثار أخرى وهي الكنز والوافية والشافية والكافية وسورة الحمد والحمد لله وسورة الصلاة وسورة الشفاء والاساس وسورة الشكر وسورة الدعاء[15].

الكشف عن أهداف السورة ومقاصدها

تتمثل الخطوة التالية في محاولة المتدبر الكشف عن أهداف السورة ومحاورها الأساسية وذلك من خلال البحث عن سبب نزولها، ومكان نزولها وترتيب نزولها بين السور المكية أو المدنية وربط ذلك كله بما عرف عن القرآن المكي من خصائص وما عرف عن المدني من سمات أدرجها المفسرون في مؤلفاتهم.

ويتبين للمتدبر في سورة الفاتحة أنها **سورة مكية وهي الخامسة ترتيبا** بين **السور** في **النزول**، ويجمع المفسرون على أنها أول سورة نزلت كاملة غير منجمة. وقد حقق بعض العلماء أنها نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها.

ومن المعروف أن الموضوع الرئيس في السور التي نزلت في مكة هو **تنقية العقيدة بكل موجباتا** في **الآفاق والنفس.** إلا أن ذلك لا يعني أن السور المدنية قد خلت من الحديث ن العقيدة مطلقا فقد استمر الحديث وتواصل في القرآن الكريم عن العقيدة ولم يتوقف. وفي ذلك تأكيد لعدة مسائل في غاية الأهمية منها:

- أن الخطاب في السور المكية وإن كان قد تمّ نزوله في بيئة غالب أهلها من الكفار أو المشركين، إلا أن ذلك لا يعني أن موضوع العقيدة موجه للكفار فحسب بل هو **خطاب متواصل للمؤمنين لا ينقطع الحديث عنها** في **القرآن** **لمحوريتها**، وأهمية ما ينبني عليها فالعقيدة السليمة النقية من الشوائب أساس بناء المؤمنين أفرادا ومجتمعات. واهتمام القرآن بتصحيح العقيدة وتنقيتها متواصل في القرآن لأهميته ودوران أحكام الحياة كلها حولها، وصلاح الدارين فيها.
- افتتاح القرآن الكريم بالفاتحة، وتكرار قراءتها في كل ركعة دليل على تواصل أهمية العقيدة في حياة المسلم وضرورة تحويلها إلى سلوك وعمل واقعي مستمر في الحياة. فالعقيدة السليمة درس يعطى على الدوام ولا ينقطع الحديث عنه في القرآن مطلقا. فهو اساس الشرع وتعاليمه ومفتاح سعادة الإنسان في الدارين. وبقدر صفاء العقيدة ونقاوتها والتخلص من شوائبها، بقدر ترقي الإنسان في الحياة بمختلف نواحيها. فالعقيدة ليست أمرا نظريا يقرأ ويدرس بعيدا عن التطبيق والانفعال به وتنفيذه.

- من هنا كانت تنقية التوحيد في الحياة الإنسانية من أبرز أهداف هذه السورة. وقد ضمت السورة ذات السبع آيات أنواع التوحيد قاطبة التي جاء الحديث عنها في مختلف السور: توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات. فتحقيق هذه الأنواع من التوحيد هو الأساس الذت تأتي فيما بعده العبادة الصحيحة لتحقق الهداية محور السعادة في الدارين للفرد والجماعة.
- ومن أهداف السورة الواضحة لزوم جماعة المسلمين وتأكيد وحدة الصف ويتضح ذلك جليا من خلال نقاط: لفظ الجمع في قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين، ثم في الدعاء الوراد بصيغة الجمع كذلك الذي يؤكد أن المسلم جزء من الكل. فالدعاء الوارد بالتثبيت والسير على الصراط والطريق المستقيم الذي سارت عليه أجيال المَنعم عليهم من أفراد المؤمنين الموحدين خلال عمر البشرية قاطبة، من أسس بناء لزوم الجماعة في النفس.

البحث في الكلمات

ينبغي للمتدبر في سورة الفاتحة بعد هذه الخطوة تتبع الكلمات المحورية في السورة. حيث أن هذه الكلمات والألفاظ تشكل مداخل لتدبرها وتفهم معانيها وربط ذلك كله بمقاصد السورة الأساسية.

ثمّ إن المتدبر في السورة عليه تتبع تلك الكلمات وجمع الآيات التي وردت فيها في مواضع أخرى من القرآن الكريم إضافة إلى مشتقات اللفظة من مادتها اللغوية وبعد جمع تلك الآيات والإحاطة بتفسيرها ومعانيها اللغوية، ينتقل إلى محاولة استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها. ومن ثمّ البحث عن معناها المخصوص في سورة الفاتحة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذا اللون من التفسير لا يوجد في كتب العلماء الأقدمين حيث ان تفاسيرهم كانت في حدود معاني الكلمة الواحدة في موضعها في السورة الواحدة[16].

تدبر بسم الله الرحمن الرحيم

1. **البسملة اسم لكلمة باسم الله.** ولاخلاف بين المسلمين في أنها لفظ قرآني جزء من آية قرآنية وهي قوله تعالى:"ِإنه مِن سلَيمَانَ وَإِنه ِبسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ" (النمل: 30)، كما لم يختلفوا في أن الافتتاح بالتسمية من الأمور المهمة ذوات البال في الإسلام. كما جاء في الحديث:" كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم"[17].

ولكنهم اختلفوا هل البسملة آية من سورة الفاتحة أم لا. فيرى بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وبعض فقهاء مكة وابن كثير والشافعي وأحمد أن البسملة آية من سورة الفاتحة خاصة ويرى عبد الله بن مسعود وبعض الحنفية أنها ليست من سورة الفاتحة.

وعلى أنهم اختلفوا في كونها آية منها إلا أنهم اتفقوا على قراءتها عند الشروع في قراءة كل سورة من أولها غير براءة[18].

والباء في باسم الله تعلقت الباء بمحذوف تقديره أقرأ وأتلو وأبدأ باسم الله وحذف الفعل تخفيفا. وفي البسملة الكثير من المعاني منها:

تنبيه العبد منذ شروعه في العمل أن مدار أمره على التسهيل والتخفيف والمسامحة فالله تعالى في أول كلمة ذكرها جعلها دليلا على الصفح والإحسان[19].

والقرآن كله من أول كلمة نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم بدأ مقرونا باسم الله كما جاء في قوله تعالى: " اقْرَأْ ِباسْمِ رَبكَ الذِي خَلَق" (العلق:1) فنحن نقرأ القرآن باسمه لأنه جلّ جلاله هو الذي يسره لنا كلاما وتنزيلا وقراءة وفهما وتدبرا وعملا بأوامره وتطبيقا لتعاليمه.

من هنا كانت من الأمور الهامة التي لابد أن يبتدأ بها الإنسان كل عمل في حياته. وفي ذلك تذكير للإنسان أن كل مافي الكون من عطاء الله ونعمه التي سخرها للإنسان. قال تعالى: هو الذي سخر لكم مافي الأرض جميعا" فالأسباب في الكون محكومة بقوانين لإعمالها وتوظيفها

لخدمة الإنسان. فتذكر الإنسان للبسملة قبل البدء في أي عمل تعني خضوعه واعترافه بالفضل والإنعام لله سبحانه وأن الأسباب في الكون والعطايا والنعم هي من فضل الله وعطائه المستحق للشكر من جهة وانها لاتعمل بوحدها دون أمر الله وليس لها قدرة عمل ذاتية من جهة أخرى فجاءت البسملة كمدخل لاستخدام هذه الأشياء باسم من خلقها وسخرها لنا.

فجميع القوانين في **الكون القوانين لا تعمل بذاتها ولكن بأمر** الله **وقدرته فهو خالق** القوانين **ومسبب الأسباب إن شاء أعملها وإن شاء أبطلها.**

فالبسملة **اقرار من العبد بأن** الله **عز وجل هو الذي حرك الأنفس والأبدان** وأعطاها قوى التاثير وهو الذى أوجدها وأعدها ومدها وسلطها على ما شاء وهو الذى يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها وفي هذا من تثبيت التوحيد ما ليس في سواه[20].

من هنا فالإنسان بحاجة إلى معونة الله عند البدء بالقراءة والتدبر فيها وعلى هذا شرعت البسملة قبل البدء في مختلف الاعمال كما جاء في الحديث:" كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم أجذم".

وفي الحديث إشارة إلى أن المؤمن عند افتتاح العمل بالبسملة يأخذ جزاءين الأول في الدنيا متمثلا في الإفادة من الشيء ذاته والثاني في الآخرة نتيجة ذكره لله عز وجل. فالذي لا يذكر البسملة يكون قد اقتطع الجزاء الأخروي من عمله فبات ناقصا أقطع.

وجاءت البسملة باسم لفظ الجلالة الله وهو اسم الله الأعظم الجامع للأسماء الحسنى كلها الدالّ عليها، فهو دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية مع نفي أضدادها عنه. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كما في قوله تعالى:" وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (الأعراف: 180). فهذا الاسم مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها الإجمال[21].

والبسملة تضع المؤمن أمام أمرين فهي تذكره بنعم الله عز وجل وأن ما في يديه من نعم الخالق وما سخره له. فتصرف قلبه إلى استحضار أمر الله في استعماله كما في الطعام والشراب والعمل ونحو ذلك.

من هنا فإن **اعتياد الإنسان على البدء باسم الله ينجيه من الشروع** في **عمل يغضبه**، لما يتبادر إلى ذهنه من تعظيم أمر الله ونهيه فلا يتمكن من البدء فيه وهو متلفظ بالبسملة.

والبسملة عطاء الإلوهية فجاء لفظ الجلالة الله وليس اسم الرب سبحانه لأن البسملة عطاء الإلوهية وليس الربوبية، فدخل فيها المؤمن دون غيره لما اختص به من الجزاء الأخروي والدنيوي.

أما الرحمن فهو اسم وصفة وقد جاء استعمال القرآن بالأمرين جميعا وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيهما من المعاني ما يفوق الحصر منها: أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل. فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته. فالرحمن هو الموصوف بالرحمة والرحيم هو الراحم برحمته[22].

الحمد لله **رب العالمين**

للوقوف على معنى الحمد ومفهومه ينبغي البحث أولا في معنى الكلمة القرآنية في اللغة[23] . ويمكن تحقق ذلك من خلال الرجوع إلى المعاجم اللغوية مثل كتاب لسان العرب لابن منظور، القاموس المحيط، المصباح المنير...والبحث في استعمالاتها في اللغة وفي القرآن الكريم كذلك. وعلى المتدبر الكشف عن الدلالات الأساسية للفظة في الاستعمال القرآني بمعنى النظر والتتبع لمختلف المواضع التي ورد استعمال اللفظة فيها.

فالحمد في اللغة: قد يكون شكرا للصنيعة ويكون ابتداء للثناء فحمد الله الثناء عليه ويكون شكرا لنعمه التي شملت الكل والحمد أعم من الشكر[24].

وينبغي للمتدبر النظر في الألفاظ المتقاربة المعنى من الكلمة المطلوب البحث عنها، فعند البحث عن مفهوم الحمد لابد من النظر في الكلمات المقاربة لها وهي المدح والشكر ولكل منها مفهومه الخاص. وقد ذكر العلماء والمفسرون وجوها للتفرقة بين المدح والحمد لعل من أبرزها أن المدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده. أما الحمد فهو لا يكون إلا بعد الإحسان. والمدح قد يكون منهيا عنه أما الحمد فهو مأمور به مطلقا.

والحمد والمدح يجتمعان في الإخبار عن محاسن الغير إلا أن المدح إخبار عن المحاسن مجردا عن الحب والإرادة للممدوح. أما الحمد فهو إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه[25].

فالحمد يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا ينبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد. من هنا جاءت لفظة الحمد في غاية التناسب حتى سمى البعض السورة كلها سورة الحمد.

أما الفرق بين الشكر والحمد، فالحمد يعم سواء إذا وصل الإنعام إلى الحامد أم إلى غيره إلا أن الشكر مختص بالإنعام الواصل للشخص ذاته، فالحمد أولى. فالتقدير أن العبد يقول: سواء أعطيتني أم لم تعطني فإنعامك واصل إلى كل العالمين وأنت مستحق للحمد العظيم[26].

وذكر الراغب أن الشكر تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها. والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه "يَعْمَلُونَ لَه مَا يَشَاء مِن محَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدورٍ راسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوودَ شكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشكُور" (سبأ: 13). لينبه على أهمية التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح[27].

1. ولدى التدبر في أنواع الشكر ومراتبه، يظهر السبب وراء ورود النصوص القرآنية بقلة الشاكرين أي الملتزمين بأنواع الشكر.كما في قوله تعالى:" وَلَـكِن أَكْثَرَ الناسِ لاَ يَشْكُرونَ (سورة البقرة: 243)، يوسف: 38، غافر: 68.

يتبين من خلال التدبر في تلك الألفاظ كلها أن **الحمد لفظ مخصوص تلتقي فيه معان ثلاثة فهو ثناء للجلال والجمال والكمال**، وهو مديح على ما ننال من عطايا ونعم، وهو شكر يقابل الخير النازل والفضل المسدى. فالحمد ثناء ومدح وشكر، من هنا جاء مطلقا لله عز وجلّ وحده.

وقد جاءت لفظة الحمد في القرآن الكريم في 27 موضعا. كما وردت لفظة حمد مجردة من الألف واللام في عشرة مواضع.

وعلى المتدبر في السورة التنبه والبحث في معاني الحمد التي جاء ذكرها في آيات القرآن الكريم المذكورة في الحمد لكي يتسنى له فهم معنى الحمد في القرآن، وعلى هذا مدار التدبر فهم اللفظة من خلال حصر وفهم معانيها في الاستعمالات القرآنية في غيرها من سور. ومن ذلك قوله تعالى:"فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام: 45). فحذف فاعل القول لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه فيحمده أهل السموات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار.

فهذه الجملة في موضع الحال أي قطع دابرهم حال كونه سبحانه محمودا على ذلك فقطع دابرهم قطعا مصاحبا لحمده. فهو قطع وإهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها فوضعها في الموضع الذي يقول من علم الحال لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل ولا يليق به إلا العقوبة. ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاء إلى النار:" وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الزمر: 75). فحذف فاعل القول إشعارا بالعموم وأن الكون كله قال الحمد لله رب العالمين لما شاهدوا من حكمه الحق وعدله وفضله[28].

من خلال ذلك كله يتضح أن الحمد جامع لجميع مقامات الإيمان بل هو أرفعها وأعلاها وهو فوق الرضا بعطاء الله بل حمده على العطاء سواء أكان ذلك وفق ما يحبه المرء أم ما لا يحبه.

فالحمد المطلوب تحققه من خلال تلاوة سورة الفاتحة وتدبرها، **الترقي بالمؤمن** إلى **حالة نفسية يسودها مطلق الحمد** لله **الخالق على عطائه ومنعه.** ولا تقف تلك الحال عند حدود الخاطر والنفس بل تتعداها لتصبح **كلمة يقولها القلب قبل اللسان** ثم **تنعكس على الجوارح التي ما تلبث أن** تخضع لله **شكرا وسلوكا وعملا**. من هنا جاء قوله تعالى:"اعملوا آل داود شكرا

وقليل من عبادي الشكور" **فالحمد أولا** ثم **الشكر سلوكا وتنفيذا** لما **تقتضيه حالة الحمد. من هنا ورد** في **الأثر الحمد رأس الشكر ومن** لم **يحمد الله** لم **يشكره**[29].

فالحمد صفة القلب وهي اعتقاد أن المحمود متفضلا منعما مستحقا للتعظيم والإجلال فجاءت لفظة الحمد في غاية التناسب فلو أن اللفظة جاءت بقوله أحمد الله وذكرها اللسان، والقلب غافل عن معنى التعظيم الوارد فيها والإجلال للخالق سبحانه، لكان كاذبا. أما إذا قال الحمد لله فسواء أكان غافلا أم مستحضرا فإنه يكون صادقا لأن الحمد حق لله وملكه وهو حاصل[30].

وفي تكرار السورة في كل ركعة في الصلاة تأكيد لوجوب التدبر في معانيها فتكرار السورة إشارة إلى ضرورة ترقي المؤمن في فهم المعاني من هذه السورة، فإذا ما فاته شيء من تلك المعاني في ركعة، فلابد أن يتبادر إلى ذهنه شيء منها من خلال عملية التكرار لها في كل ركعة.

وتكرار السورة في كل ركعة يجعل المتدبر قادرا على استشعار الحمد في مختلف الحالات والظروف التي يمر بها في السراء والضراء، في الغنى والفقر، وفي القوة والضعف، في إقبال الدنيا وإدبارها، في الرفعة والضعة، في العز والذل، فالحمد لله ينبغي أن يكون على كل حال. فالمؤمن يعيش حالة دائمة من الحمد لله عز وجل مردها اليقين والرضا بأمر الله بل يترقى المتدبر في كتاب الله إلى أن يصل إلى شكر الخالق سبحانه على قضائه وقدره ليقينه بأمر الله وقضائه وأن كل ما يقضي به خالقه فهو خير له.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد"[31].

فالفرق الأساسي بين المؤمن وغير المؤمن ليس كلمة الحمد التي يقولها الناس جميعاً، بل حالة الحمد. ولذا سميت السورة بالحمد لأن في تدبرها ترقي بالمؤمن إلى أن تصل به إلى درجة الحامدين.

ومن المعاني التي يمكن استنباطها عند التدبر في الآية أن الله سبحانه من رحمته بعباده أن ساوى بينهم في تعليمهم كيفية الثناء عليه بقول الحمد لله، وإنما يتفاوتون في تواطئ القلب والعقل على ذكر اللسان أثناء التلفظ بالحمد.

كيف يصل العبد إلى درجة الحامدين من خلال تدبره للسورة

- أن يشهد العبد نعمة الله عليه في كل شيء حتى في المكروه، فالمكروه نعمة باطنة. فإذا تيقن بذلك، عرف أن كل مافي العالم من محنة وبلية وألم ومشقة فهو وإن كان عذابا وألما في الظاهر إلا أنه حكمة ورحمة في الحقيقة[32]. تقتضي رحمته أن يسوق لعبده بعض الشدائد، هذه الشدائد تسمى شدائد.
- والإيمان بأسماء الله وصفاته يجعل الإنسان يعلم يقينا أن المحن والشدائد التي تصيبه ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب، فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها. لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته أحبوا أم كرهوا، فعرف ذلك الموقنون باسمائه وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه وخفي ذلك على الجاهل باسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره وقدحوا فى حكمته ولم ينقادوا لحكمه.
- عندما يفوز العبد بهذه المعرفة يسكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه فيها إلا نعيم الآخرة فانه لا يزال راضيا عن ربه والرضا جنة الدنيا.
- أن يشهد نعمة الله في التكفير بالابتلاء عن خطايا الإنسان، فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا غم! ولا أذى إلا كفّر الله به من خطاياه فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه

داء الخطايا والذنوب ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء فهو مغبون.

- أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه.
- أن يدرك العبد أن كل ما يأتي منه من طاعة وعبادة، يوجب عذرا فلا يراه صالحا لربه فهو مع إحسانه معتذر في إحسانه.
- أن يشهد نعمة الله عليه في توفيقه للطاعة والعبادة.
- أن يشهد أن كل ما يأتي من الله سبحانه يوجب شكرا والعبد عاجز عن الشكر. و استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليه والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليه وأنه عاجزة عن شكره ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة . وقد أفصح النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا بقوله: والشر ليس إليك أي لا يضاف إليك ولا ينسب إليك ولا يصدر منك فإن أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها فضل وعدل وحكمة ورحمة ومصلحة فبأي وجه ينسب الشر إليه سبحانه وتعالى فكل ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر وله فيه النعمة والفضل.
- ابتداء اليوم بالحمد ...آلاف النعم تجعل الإنسان يحمد الله سبحانه وحده دون شريك له.
- ترديد لفظة الحمد واستشعارها وتمرير النعم على العقل قبل التلفظ بها، يعلمنا كيفية الحمد.

الترابط بين **الكلمات والآيات** في **السورة**

على المتدبر لآية الحمد البحث عن التناسب والترابط بين مضمونها وبين ما جاء بعدها من كلمات وربط ذلك كله بمقاصد السورة وأهدافها. فالحمد والثناء والتمجيد لله عز وجل في ذاته سبحانه، ثم جاء بعد تأكيد الحمد له سبحانه في ذاته، أوصاف عديدة للخالق عز وجل:"

رب العالمين، الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين". كلها تدور حول استحقاق الحمد لصفاته كما هو لذاته سبحانه.

" رب العالمين": الرب في الأصل من التربية وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، فيقال ربه ورباه ورببه. ويجوز أن يكون من ربه بمعنى ملكه. ولا يقال الرب إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات فهو المتولي لمصالح العباد[33].

والأقرب إلى اللفظ القرآني أن الرب من يربي ويسوس فهو سبحانه مدبر الخلائق ومبلغها كمالها نفسا وجسدا.

والتناسب بين المعنى **اللغوي** واللفظة القرآنية في غاية الدقة، فالله عز وجل لا تنقطع ربوبيته لعباده.

ويتبين للمتدبر في معنى رب العالمين:

- الربوبية تتضمن الرحمة للعالمين فالله سبحانه رب للمؤمن والكافر.
- يعطيهم من النعم برحمته وليس بما يستحقون. كل النعم من عطاء الربوبية فالله رب الجميع وهذه رحمة.
- كل إنسان يتلقى من الله عز وجل تربيتين، يتلقى تربية لجسمه ويتلقى تربية لنفسه، فكل ما يحدث لك فهو من الله عز وجل، بناءً على واقعك وعلى نفسيتك.
- الله رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره. والناس مقرون بأنه وحده رب كل شيء ومليكه وخالقه وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ورب السموات السبع ورب العرش العظيم وهم مع هذا يعبدون غيره ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا فهؤلاء لم يوفوا إياك نعبد حقه وإن كان لهم نصيب من نعبدك لكن ليس لهم نصيب من إياك نعبد المتضمن معنى لا نعبد إلا إياك حبا وخوفا ورجاء.
- فالسعيد من ألهه وحده لا شريك له وأقر له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له وهذا توحيد الإلوهية.

الرحمن الرحيم

وصفان مشتقان من رَحِم واسم الرحمة في اللغة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة. وإذا وصف بها الخالق سبحانه فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الآدميين رقة وتعطف[34].

ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة. ووصفه تعالى بالرحمن الرحيم منقول في لسان الشرع إلى إرادة إيصال الإحسان إلى مخلوقاته. وذكر جمهور العلماء أن وصف الرحمن لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام وأن القرآن هو الذي جاء به صفة لله تعالى فلذلك اختص به سبحانه.

وفي الإتيان بهذين الوصفين على اسم الجلالة بعد وصفه سبحانه أنه رب العالمين مناسبة واضحة، فلما كان سبحانه ربا للعالمين وهم في احتياج إلى الرحمة، جاءت صفتي الرحمن الرحيم لتأكيد أن الربوبية تقتضي الرحمة فهي تبلغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا[35].

فالرحمة في وصفه سبحانه توضح أن إبلاغ العباد إلى الكمال لم يكن على وجه الإعنات والشدة بل كان برعاية فكانت الربوبية نعمة وصلت إلى العباد عن طريق الرفق والرحمة. فتصرفه في الخلائق تصرف رحمة. ومن رحمته سبحانه أنه لم يترك الخلق في الدنيا دون حساب على العمل أو جزاء عليه، فكان اليوم الآخر من محض عدله سبحانه وفصله بين العباد.

ومن أعطى اسم الرحمن حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان[36].

فكلما كان العبد أعرف بمعنى هذين الاسمين، كان أرضى بقضاء الرب سبحانه، وعلم أن قضاء الله سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة لا يخرج عن ذلك البته كما قال صلى الله عليه وسلم في الدعاء المشهور اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك.

وفي مجيء الرحمن الرحيم بعد رب العالمين، بيان أن شمول الربوبية لا يخرج شيء عنها عن شمول الرحمة وسعتها فوسع كل شيء سبحانه بربوبيته ورحمته.

مالك يوم الدين

المَلِك والمالك مشتقان من ملك والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور وذلك يختص بسياسة الناطقين، ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء.

والملك ضربان: ملك هو التملك والتولي وملك هو القوة على ذلك تولى أم لم يتول[37]. وقد وردت قراءتان صحيحتان ملك ومالك يوم الدين.

ومن أعظم النعم المستوجبة لحمده سبحانه، ملكيته سبحانه ليوم الدين فهي التي حمت الضعفاء والمظلومين والمحزونين..لأنه في الآخرة لا يعطي الملك لأحد لا ظاهرا ولا غير ظاهر. فالملك كله له فكانت مَلِك.

ومالك يوم الدين تستكمل صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى فبعد أن جاء الوصف برب العالمين، عقّب بصفتي الرحمن الرحيم لإفادة عظمة رحمته ثم جاء وصف مالك يوم الدين للتنبيه على عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء.

وفي لفظة الدين لمتدبرها وقفة أخرى فاختيار هذه اللفظة تأكيد أن معاملة الخلق في ذلك اليوم ستكون بما قدموه من أعمالهم لتستكمل الآيات أوصاف الحمد قاطبة في كل كلمة فيها.

وهكذا فالربوبية والإلوهية والملك لا تنفك الواحدة منهم عن الآخرى، والرحمة سبب واصل بين ذلك كله.

والأسماء المذكورة في **هذه السورة هي أصول الاسماء** الحسنى **وهي اسم الله والرب والرحمن فاسم الله متضمن لصفات الألوهية واسم الرب متضمن الربوبية واسم الرحمن متضمن لصفات الاحسان والجود والبر ومعاني اسمائه تدور على هذا.** وقد جاءت تلك الأوصاف كاملة بعد لفظة الحمد إشارة إلى استحقاقه سبحانه لا شريك له لكل المحامد والتعظيم.

إياك نعبد وإياك نستعين.

هما كلمتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد، فإياك نعبد للرب وإياك نستعين للعبد. كما جاء في صحيح مسلم عن معاذ رضي الله عنه قال كنت رديفا للنبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله اعلم قال حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به"[38]. فالعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى:" وَمَا خَلَقْتُ الْجِن وَالْإِنسَ إِلا لِيَعْبدونِ" (الذاريات: 56). وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب.

ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع[39].

أما في الاصطلاح فهي اسم يجمع كمال الذل ونهايته وكمال الحب لله ونهايته فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله[40].

وفي تدبر الآية معان عدة منها:

- في تحقيق إياك نعبد تحقيق لتوحيد الإلوهية، فالناس مقرون بأن الله وحده رب كل شيء ومليكه وخالقه وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ورب السموات السبع ورب العرش العظيم وهم مع هذا يعبدون غيره ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم. وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا فهؤلاء إنما فعلوا ذلك من جهة عدم الوفاء بحق إياك نعبد. وهذا ما جاء ذكره في سورة الأنعام حيث يقول تعالى:" الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" أي يجعلون له عدلا في العبادة والمحبة والتعظيم وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم. وعرفوا وهم في النار أنها كانت ضلالا وباطلا فيقولون لألهتهم وهم في النار معهم:" تَاللهِ إن كُنا لَفِي ضَلَالٍ مِبينٍ إِذْ نسَويكُم بِرَب الْعَالَمِينَ" (الشعراء: 97-98). ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السموات والأرض وأنها تحيي وتميت وإنما سووها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها[41]. فمعنى **لا نعبد إلا إياك حبا وخوفا ورجاء وطاعة**

وتعظيما فإياك نعبد تحقيق **لهذا التوحيد وإبطال للشرك** في **الإلهية** [42]. فكل من اتخذ شريكا لله سبحانه، لابد وأن يقع على عبادته بوجه من الوجوه إما في اعتقاده بتقديم النفع له أو امتلاك إيقاع الضرر به أو نحو ذلك من مظاهر الشرك ..فإذا قال العبد إياك نعبد فمعنى ذلك، أنه لم يعبد إلا الله مطلقا فلا يخاف إلا إياه ولا يرجو إلا إياه ...فكانت تلك الكلمة إعلان للتوحيد في مختلف أنواعه ومراتبه. فهي تثبت في النفس معنى لا إله إلا الله.

- التحقق بمنزلة إياك نعبد تعين المصلي على عدم الالتفات في صلاته لغير الله عز وجل وكلما ترقى العبد بتحقيقها، كان ذلك أجمع لقلبه ولسانه وجوارحه في الصلاة.

- في إياك نعبد قصر وحصر للعبادة على ذاته سبحانه فالعبادة خضوع لله سبحانه بامتثال كل أوامره واجتناب نواهيه ولذا كانت الصلاة أساس العبادة والسجود منتهى الخضوع. ففيه اعلان أمام البشر جميعا أن المؤمن خاضع لله. ففي إياك نعبد تخصيص العبادة لله وحده ولا يعطف عليها أبدا. فهي حصر حقيقي لأن المؤمنين الملقنين لهذا الحمد لا يعبدون إلا الله.

- في إياك نعبد والإتيان بذكرها بعد الأوصاف التي وصف بها الله سبحانه نفسه، بيان للطريق الموصلة إليه ولا طريق سواها وهي طريق العبادة والاستعانة به على ذلك.

- في مجيء إياك نعبد بعد الأوصاف الجليلة التي وصف الله سبحانه بها نفسه في أول السورة، وعرفها لعباده حكمة عظيمة. فالحب لابد أن يتبع العلم. فالله عز وجل في الآيات جاء بأوصافه سبحانه لتكون العبادة التي هي كمال الحب والخضوع والذل له، متأتية عن علم. فمحبة الله أصل الدين وكماله. وفي السورة تمهيد لهذه المحبة حتى تكون عن علم ويقين بأن الله سبحانه هو المستحق للمحبة دون سواه[43]. كما أن داعي العبادة هو التعظيم والإجلال و لا يكونا إلا عن محبة وخوف ورجاء.

وأصل العبادة محبة الله وإفراده سبحانه بها، فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله فمحبته لرسله من تمام محبته لله وليست محبة معه. وهذه المحبة لا تتحقق إلا

باتباع أوامره واجتناب نواهيه. كما في قوله تعالى:" قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"[44].

فإذا أحب العبد ربه، عبده عن اختيار وفعل كل ما يحبه الله ويرضاه، فحقق معنى العبودية لله ودخل في إطار عباد الله. حيث أن العبودية عامة وخاصة فالعامة منها عبودية المؤمن والفاجر وهي عبودية أهل السماوات والأرض جميعا فكلهم عبيد ربوبيته لهم. أماالعبودية الخاصة فهي عبودية المحبة والطاعة وإتباع الاوامر. ولا يأتي في القرآن إضافة العباد إليه سبحانه مطلقا إلا لهؤلاء كما في قوله تعالى: "ِإن عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ِإلا مَنِ اتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ" (الحجر: 42). فبموجب عبوديتهم الخاصة، استحقوا ألا يكون للشيطان عليهم سبيل[45].

- في الإتيان بإياك نعبد بعد تلك الأوصاف والمحامد إظهار لمعنى الإخلاص لله ومراعاة ما تقتضيه تلك الأوصاف من حقوق إفراد العبادة والاستعانة والمحبة والخضوع له سبحانه وسائر ما تتضمنه. كما أن في **تقديم إياك** لفتة لطيفة فقد جاءت مفعول مقدم والمفعول إنما يتقدم على فعله قصدا إلى تعيينه وحرصا على تمييزه عن غيره وصرفا للذهن عن الذهاب إلى غيره. ولذلك تقدم في إياك نعبد إذ الكلام وارد في معرض الإخلاص وتحقيق الوحدانية ونفي عوارض الأوهام عن التعلق بغيره ولهذا اختصت أي بنداء ما فيه الألف واللام تمييزا له وتعيينا[46].

- في قوله تعالى إياك نعبد، إثبات للإيمان بالنبوات وإرسال الرسل. فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه وعبادته وهي شكره وحبه وخشيته فطرى ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول[47].

- التحقق بمقتضيات إياك نعبد يشفي من مرض فساد القصد والغاية. فالإنسان لابد وأن يطلب له غاية في هذه الحياة، فإذا طلب في حياته غاية منقطعة فانية كسائر غايات الدنيا ومقاصدها، فسد قصده وفسدت الوسائل التي يصل بها إلى تحقيق ذلك الغرض وهذا حال كل من كان قصده غير الله. والتحقق بإياك نعبد، يترقى بالعبد ليصل به إلى جعل قصده

وغايته عبادة الله وحده دون ماسواه. فإذا صح قصده وغايته، تعينت وسيلته إلى تحقيق ذلك القصد والغاية وتحرر من عبودية الهوى واتباع شرعه[48].

- التحقق بمقتضيات إياك نعبد وإياك نستعين شفاء لمن طلب الغاية الأسمى وهي عبادة الله إلا أنه توسل إليها بوسيلة ظنها توصل إليه وهي في الحقيقة قاطعة عنه. فدواءه إياك نستعين، فهو عابد لله لا غيره، بأمر الله لا بشرع غيره وأمره، ولا بهواه، ولا بآراء الرجال وتقليدهم، ومستعين على ذلك كله بالله عز وجل لا بنفسه وقوته أو غيره.

- التحقق بإياك نعبد شفاء لمرض الكبر والاستعلاء على الآخرين ونزع ذلك كله ودواعيه من القلب انتزاعا. فالمسلم في أدائه للصلاة ومناجاته ربه بقوله إياك نعبد، معلن خضوعه أمام الخلق فقد ساوى سبحانه بين عباده في الخضوع له وفي كيفية إعلان ذلك الخضوع. من هنا كانت إياك نعبد شفاء ونزع لداء التكبر على الخلق الذي هو من أبغض الأدواء.

تدبر وإياك نستعين

الاستعانة طلب العون[49] والعون والإعانة تسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده، فهي تحصل بإعداد طريق تحصيله. أما الاستعانة بالله فهي طلب المعونة على ما لا قبل للبشر بالإعانة عليه ولا قِبل للمستعين بتحصيله بمفرده، ولذلك فهي تشعر بأن المستعين يصرف مقدرته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه بتيسير ما لا ِقبل لقدرة المستعين على تحصيله بمفرده[50].

وقد فسر العلماء الاستعانة بأنها خلق ما به تمام الفعل وتيسيره. فتنقسم إلى ضرورية: وهي ما يتوقف الفعل عليها فلا يحصل بدونها أي لا يحصل بدون توفر متعلقه وهي إعطاء الاقتدار للفاعل وتصوره للفعل وهو ما يعبر عنه بالاستطاعة.

اما القسم الثاني فهو المعونة غير الضرورية وهي الإعانة بما يتيسر به الفعل للمعان حتى يسهل عليه ويقرب منه مثل إعداد الراحلة في السفر للقادر على المشي.

فإذا انضم هذان المعنيان لبعضهما، تحقق التوفيق الذي هو إيجاد القدرة والداعية إلى الطاعة.

فالإعاة توفيق الله للعبد، فإذا التزم عبوديته ودخل تحت رقّها، أعانه عليها فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة.

فكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم. وهذا من حِكم وأسرار تقديم نعبد على نستعين[51]. فقدم بين يدي الاستعانة بالله، العبودية له سبحانه. والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها وإعانة بعدها على عبودية أخرى.

فالعبادة والطاعة من أكثر الأمور التي يحتاج العبد فيها إلى مجاهدة النفس التي من طبعها الكسل وايثار الراحة، ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها وإن فعلها مع ذلك كان متكلفا غائب القلب ذاهلا عنها. فكان الإتيان بإياك نستعين في غاية التناسب للمقام.

فالعبد يحتاج إلى الصبر والثبات في هذه الامور كلها ولا يتأتى له ذلك إلا بمعونة من الخالق سبحانه. فقبل الشروع فيها يحتاج إلى تصحيح النية والاخلاص وتجنب دواعى الرياء والسمعة وعقد العزم على توفية العبادة حقها. ثم حال عملها يحتاج إلى توفيتها حقها من حضور القلب بين يدي الخالق سبحانه والقيام بأركانها وواجباتها وسننها. ثم بعد الفراغ من العمل من حيث عدم الإتيان بما يبطله وعدم رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها، فإنّ هذا أضر عليه من كثير من المعاصى وهكذا فالعبد بحاجة متواصلة إلى الإستعانة بالله على عبادته وطاعته.

فالمقصود هنا الاستعانة على الأفعال المهمة كلها وأعلاها تلقي الدين وكل ما يعسر على المرء تذليله من توجهات النفوس إلى الخير وما يستتبع ذلك من تحصيل الفضائل.

- الإستعانة تجمع أصلين الثقة بالله والإعتماد عليه فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لإستغنائه عنه وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به والتوكل معنى يلتئم من أصلين من الثقة والإعتماد وهو حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين.

فالتوكل والاستعانة متلازمان وهما حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه.

كما أن التوكل قرين العبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما، منها قول الله تعالى في قصة شعيب مع قومه:" وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْت وَإِلَيْهِ أُنِيب " (هود: 88). وقوله تعالى :" وَإِلَيْهِ يُرْجَع الأَمْر كُله فَاعْبُدْه وَتَوَكلْ عَلَيْهِ " (هود: 123). وقوله عن المؤمنين:" ربنَا عَلَيْكَ تَوَكلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِير" (الممتحنة: 4).

- وإياك نستعين فيها حصر وقصر كذلك والمعنى أننا لا نستعين على الأمور إلا بالله تعالى وفيها تعريض بكل من يستعين بغير الله. ومن ذلك ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما علّم ابن عباس رضي الله عنهما قال له: إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله[52].

فالملاحظ هنا للمتدبر في الآية والحديث، أن سياق الحديث جاء في معرض التعليم لمن نشأ في الإسلام وهو ابن عباس رضي الله عنهما. أما مقام الآية فهو مفتتح الوحي والتشريع فناسب تأكيد الحكم بالقصر مع التعريض بحال الشرك مع الله في الاستعانة بغيره، وبراءة من صنيعهم[53].

- وفي تقديم إياك نعبد حكمة أخرى وهي أن العبادة تقرب للخالق تعالى وهي من عزم المصلي وصنيعه على ما يسأله، فقدمها وجعلها بين يدي مناجاته. وفيها أن أفضل ما يطلب العبد عليه الإعانة هو العبادة التي هي غاية الخلق وسعادتهم في الدراين، فلما قدم العبادة جعل طلب العون عليها لاحقا. وهذا من أفضل مقامات المؤمنين أن يكونوا من أهل العبادة والإستعانة بالله عليها.

فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علّمه النبي صلى الله عليه وسلم لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[54].

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:" تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين"[55].

فالمعرض عن عبادة الله سبحانه، قد يسأل الله عز وجل طالبا منه العون في أمر حظوظه وشهواته، والله عز وجل أخبر انه يسأله من في السماوات والأرض وقد أعطى إبليس حاجته ولكنها لم تكن عونا له على مرضاة الله بل زيادة في شقوته وهكذا كل من استعان بالله على غير ما يرضيه سبحانه[56].

- في الآية تنبيه للعاقل ألا يسأل الله شيئا خيرته وعاقبته مغيبة عنه. فإذا لم يجد من سؤاله بد، فليعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة وقدم بين يدي سؤالك الإستخارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا. بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره. فإذا أعطى الله العبد ما أعطاه بلا سؤال، فليسأله أن يجعله عونا له على طاعته وبلاغا إلى مرضاته ولا يجعله قاطعا له عن الله ولا مبعدا عن مرضاته. وعلى العاقل ألا يظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ولكن **عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده** فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد. من هنا فإن سعادة العبد في الاستعانة بالله على طاعته وعبادته.

- في التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين شفاء لمرضين خطيرين هما الرياء والكبر. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إياك نعبد تدفع الرياء وإياك نستعين تدفع الكبر والعجب. والرياء أن يفعل العبد الطاعة ابتغاء الخلق ومرضاتهم فظاهر أعماله طاعة وصلاح، ولكنها غير خالصة لله فلا تقبل. فإذا تحققت معاني إياك نعبد في ذاته، دفعت عنه داء الرياء وكانت أعماله حصراوقصرا لوجه الله وابتغاء مرضاته. أما شفاء العجب فهو كذلك متحقق في إياك نستعين، فالعجب متأت للعبد من استحسانه للطاعة ورؤيته لها من قبل نفسه، والمتحقق بإيان نعبد وإياك نستعين، مقر بأن الطاعة لا تحصل له ولا تستكمل إلا بمعونة من الله عز وجل لا من تلقاء قوته ونفسه.

- من هنا فإن أهم وسائل التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والإخلاص لله عز وجل. فإن العبد إذا تحقق فيه معنى الإخلاص، أنزل الناس منازلهم

وأخلص لله أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهذا ما ذكره سبحانه في آية أخرى:" الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيكُمْ أَحْسَن عَمَلًا وَهوَ الْعَزِيز الْغَفُور" (الملك: 2). قال الفضيل بن عياض هو أخلصه واصوبه. فإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون صوابا خالصا. والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة[57].

- إياك نعبد منهج حياة متكامل يقوم على مراتب مجتمعة لاتنفك الواحدة منها عن الأخرى. الأولى قول القلب وهو اعتقاد كل ما أخبر الله به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وهذا معنى الإتيان بإياك نعبد بعد ذكر صفاته سبحانه في مستهل السورة. الثانية: قول اللسان وهو القيام بما يتقتضيه ذلك الاعتقاد. الثالثة: عمل القلب وهذا يتضمن المحبة والتعظيم والتوكل عليه والخوف منه والرجاء له والإخلاص.... الرابعة: عمل الجوارح كالصلاة والركوع...من هنا كانت إياك نعبد والتحقق بها والالتزام بمقتضياتها إصلاح لمنهج الحياة.

- في السورة تعليم للخلق كيفية الخطاب فالبدء بالثناء والمدح.

- في التحقق بها إدراك أن **العلم لابد أن يسبق العبادة وأن العبادة لابد أن تقوم على العلم الصحيح الوارد** في **الشرع. واستدل العلماء على أن العلم يسبق العمل بأدلة منها:" فاعلم أنه لا إله إلا الله فاعبده" وذكر البخاري** رحمه الله **باب العلم قبل القول والعمل**[58]**.**

تدبر اهدنا

الهدى والهداية في اللغة هي دلالة بلطف. والهدى ضد الضلال وهو الرشاد والدلالة. وهداه للطريق وإلى الطريق هداية إذا دله على الطريق وعرفه وأرشده إليه. كما في قوله تعالى:" وهديناه النجدين"[59]

وذكر الراغب أن هداية الله للإنسان على أربعة أوجه: الأول الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية كما في قوله تعالى:" قَالَ رَبنَا الذِي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلْقَه ثُم هَدَى" (طه: 50). الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال الكتب ونحو ذلك وهذا من قبيل قوله تعالى:" وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمةً يَهْدون ِبأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنا ِإلَيْهِمْ ِفعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصلَاةِ وَإِيتَاء الزكَاةِ وَكَانوا لَنا عَابِدِينَ" (الأنبياء: 73). الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المراد بقوله تعالى:" وَالذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهمْ هدًى وَآتَاهمْ تَقْواهمْ" (محمد: 17). وقوله تعالى:" مَا أَصَابَ مِن مصِيبَةٍ ِإلا ِبإِذْنِ اللهِ وَمَن يؤْمِن ِباللهِ يَهْدِ قَلْبه وَالله ِبكُل شَيْءٍ عَلِيمٌ" (التغابن: 11). الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة كما في قوله تعالى:" وَقَالُواْ الْحَمْد ِللّهِ الذِي هَدَانَا ِلهَـذَا وَمَا كُنا ِلنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّه" (الأعراف: 43).

وهذه الهدايات مترتبة الواحدة على الأخرى فمن لم تحصل له الهداية الأولى، لم تحصل له الثانية، فلا يصح تكليفه. ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة ...وكل هداية ذكر الله فيها عز وجل أنه منعها الظالمين والكافرين هي من قبيل النوع الثالث وهو التوفيق الذي يختص به المهتدون. والتي هي جزاء الكفر والبعد عن منهج الحق[60].

وذكر ابن القيم رحمه الله تقسيما مشابها لأنواع الهدايات المذكورة. فالأولى أسماها الهداية العامة المشتركة بين الخلق. والثانية هداية البيان والدلالة والتعريف لتحدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك **عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب.** وهي المرادة في قوله تعالى:" وَأما ثَمود فَهَدَيْنَاهمْ فَاسْتَحَبوا الْعَمَى عَلَى الْهدَى فَأَخَذَتْهمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهون

بِمَا كَانوا يَكْسِبونَ" (فصلت: 17). أما الثالثة فهي هداية التوفيق والإلهام وهي التي نفاها عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:"إِنكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِن اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهوَ أَعْلَم بِالْمهْتَدِينَ" (القصص: 56). فنفى عنه هذه الهداية واثبت له هداية الدعوة والبيان كما في قوله تعالى:" وَإِنكَ لَتهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مسْتَقِيمٍ" (الشورى: 52).
أما الرابعة فهي الهداية إلى الجنة. [61].

والهداية في قوله تعالى في سورة الفاتحة اهدنا تتناول المرتبة الثانية والثالثة فهي طلب لهداية البيان والدلالة والترعيف وطلب لهداية التوفيق والإلهام المستلزمة للاهتداء. فالتعريف والبيان وإن كانا قد حصلا للعبد، إلا أن طلب الهداية هنا يراد به التثبيت ودوام الهداية.

كيفية حصول العبد على الهدى التام

- العلم والمعرفة بما يحبه الله ويرضاه فيؤثره، وبما يبغضه الله فيجتنبه. فإذا نقص في ذلك شيء، نقص ذلك من هدايته.
- العزم والإرادة لكل ما يحبه الله ويرضاه والعزم والإرادة على اجتناب كل ما يبغضه الله وينهى عنه.
- القيام بذلك فعلا وتركا فإن نقص فعله، نقص من هداه. وهذا يتضمن أن الأمور التي تعرض للإنسان في حياته إما يكون قد هدي إليها جملة، ولم يهتد إلى تفاصيلها فهو بحاجة إلى هداية التفصيل. وإما تكون أمور هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها، وإما أمور هدي إليها تفصيلا من جميع وجوهها فهو محتاج إلى الاستمرار على الهداية والدوام عليها. وثمة أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها. فكان سؤالنا الهداية منه سبحانه يجمع كل ذلك ويتضمنه إضافة إلى مرادنا من التثبيت والدوام على الهداية. **والمسئول هو اصل الهداية على الدوام تعليما وتوفيقا وتثبيتا وعلما وعملا ودواما إلى الممات.** فالعبد مفتقر إلى الهداية في كل نَفس في جميع ما يأتيه ويتركه،نسأله سبحانه أن يهدينا الصراط المستقيم[62].

- **جاءت لفظة اهدنا بضمير الجمع:** لأن المقام مقام عبودية وفاقة وإقرار بالفاقة والفقر لله عز وجل والرغبة في الاستعانة به طلب هدايته فأتى بصيغة الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون بالعبودية لك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك[63]. وعامة الدعاء في القرآن على هذا النحو.
- وردت الآية "اهدنا" في معرض التعليم للعباد كيفية الدعاء وما يجب أن يستشعره ويعتقده حال الدعاء. فالطلب والدعاء لابد أن يكون ممزوجا بالثناء مستحضرا معتقدات الإيمان متوسلا بها إلى خالقه. فهو متوسل بإيمانه وعقيدته وتوحيده الذي تم تصحيحه في الآيات السابقة، حتى إذا ما وصل إلى طلب الهداية والدعاء، توسل بذلك إلى هذا. ثم هناك توسل آخر وهو إيمان الداعي بأن الصراط المستقيم هو الذي اختص الله به عباده وحباهم به، فهو توسل إلى الله بهذا التصديق[64].
- الصراط مأخوذ من صرطت الشيء[65] أصرطه إذا بلعته بلعا سهلا فسمي الطريق صراطا لأنه يسترط المارة فيه والصراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقا مستقيما سهلا مسلوكا واسعا موصلا إلى المقصود فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطا ولا الصعب المشتق ولا المسدود غير الموصول. ومنه السبيل المطروق وهو الذي قد مرت عليه الرسل قبله.
- وفي تعريف الصراط باللام معنى آخر، فالألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره. فلو قال اهدنا صراطا مستقيما لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق. وليس المراد في الآية ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقا إلى رضوانه وجنته.
- المستقيم اسم فاعل استقام مطاوع قومته فاستقام، والمستقيم الذي لا عوج فيه ولا تعاريج. وأحسن الطرق الذي يكون مستقيما وهو الجادة لأنه باستقامته يكون اقرب إلى المكان المقصود من غيره فلا يضل فيه سالكه ولا يتردد ولا يتحير. والمستقيم هنا

مستعار للحق البين الذي لا تخلطه شبهة باطل فهو كالطريق الذي لا تتخلله بنيات. والاستقامة لا تعدد في حين أن الضلال انواع كثيرة[66]. وقد جاء ذكر الصراط المستقيم في مواضع أخرى في القرآن الكريم بدون التعريف بالألف واللام. كما في قوله تعالى:" وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا" (الفتح:2). وقوله تعالى:" وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم".إلا أنها لم تأت في سياق الدعاء والطلب، وإنما في معرض الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم.

فالآية توضح أنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطا مستقيما هدي إليه أنبياءه ورسله وكان المخاطب سبحانه المسئول من هدايته عالما به، دخلت اللام عليه. والصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله تعالى إليه أنبياءه ورسله أجمعين وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم.

- وفي إضافة الصراط إلى موصول مبهم وهو " صراط الذين أنعمت عليهم" دون تعيينهم معاني عديدة: ان الإنعام حصل لهم بسبب هدايتهم للصراط المستقيم فصاروا به من أهل النعمة. نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدى إلى هذا الصراط، فقد أنعم عليه، ليحفز الداعي إلى الطلب من أن يكون من هؤلاء.
- النعمة في اللغة مشتقة من النعيم وهو راحة العيش وملائم الإنسان والترفه، ومتعلق النعمة اللذات الحسية ثم استعملت في المعنوية العائدة بالنفع ولم يحس بها صاحبها. فالمراد من النعمة في قوله انعمت عليهم النعمة التي لم يشوبها ما يكدرها ولا تكون عاقبتها سوأى فهي شاملة لخيرات الحياة الخالصة من العواقب السيئة ولخيرات الآخرة كذلك وهي الأهم. وهي بهذا المعنى ترجع كلها إلى الهداية. وفي ذلك تناسب بديع بين المراد من المنعم عليهم الذين أفيضت عليهم النعم الكاملة وبين من هداهم الله فالهداية نعمة والمنعم عليهم هم أصحاب النعم الكاملة[67].
- أن **الآية عامة** في **جميع طبقات المنعم عليهم** من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وهذا أعظم وأجلّ مطلوب. من هنا جاءت فرضيته على المسلم فرضا

متكررا في اليوم والليلة ولايقوم غيره مقامه ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة وأنها ليس منها عوض[68].

- قال سبحانه:" الذين أنعمت عليهم" ولم يقل المنعم عليهم كما في قوله " المغضوب عليهم" . فالطريقة المعهودة في القرآن أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول.

فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبني الفعل معها للمفعول أدبا في الخطاب وإضافته إلى الله تعالى كما في قوله المغضوب عليهم.وأمثال ذلك في القرآن كثير.

- في قوله "أنعمت عليهم" بيان أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم ومن شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره سبحانه وهو أساس الشكر.
- في قوله : أنعمت عليهم" بيان أن النعمة بالهداية إلى الصراط من عنده سبحانه دون أن يشرك أحد في نعمته، فيقال أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة وهذا من قبيل شكره سبحانه وذكره باللفظ والقلب.
- المغضوب عليهم فيه أن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه ويرضى عمن رضي عنه فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه وهذا حقيقة العبودية. واليهود قد غضب الله عليهم فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم فحذف فاعل الغضب وقال المغضوب عليهم.
- في الآية بيان أن النعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم وهي التي ينبغي أن يحرص المؤمن على طلبها وتحصيلها وه يمختصة بأهل الإيمان والتوحيد.
- قال سبحانه" غير المغضوب عليهم" ولم يقل لا المغضوب عليهم وفي ذلك معان منها: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا الهداية لهم وحدهم كما جاء في قوله تعالى:" وقوالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا" فجاءت الآية في الفاتحة تأكيد أن المنعم عليهم بالهداية هم غيرهم ليسوا هم، فالإتيان بلفظة غير لإثبات المغايرة.

- تخصيص المغضوب عليهم باليهود من حيث أن الصفة الغالبة عليهم والتي اشتهروا بها هي الغضب من الله عز وجل " وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأنهمْ كَانواْ يَكْفُرونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتلُونَ النِبيينَ بِغَيْرِ الْحَق" (البقرة:61). أما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى:" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَق وَلاَ تَتبِعواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلواْ كَثِيرًا وَضَلواْ عَن سَوَاء السبِيلِ" . (المائدة: 77).والضلال هو الجهل وعدم العلم بالحق فالكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته تارة آخرى. فكفر اليهود ناشيء عن عدم إرادة الحق رغم معرفتهم به فلم يكن ضلالا محضا، أما النصارى فنشأ عن جهلهم بالحق وتخبطهم فيه.
- في الآية تأكيد حاجة العبد إلى هذا الدعاء ودوامه عليه، فالهدى والنعمة لا تتحقق إلا بمعرفة الحق وإتباعه وإيثاره على غيره. والجهل يمنع العبد من ذلك فكانت مسألة العبد الهداية إلى الصراط المستقيم تعريفا وبيانا وإرشادا وتوفيقا وإعانة، مستمرة ملحة ليخرج عن طريق المغضوب عليهم ممن عدلوا عن الحق عن عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عن الصراط المستقيم عن جهل وضلال.

آمين

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه قال ابن شهاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول آمين[69].

الفاتحة شفاء لأمراض القلوب والأبدان

جاء في السنة الصحيحة أن الفاتحة شفاء، ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن ناسا من أصحاب صلى الله عليه وسلم النبي مروا بحي من العرب فلم يقروهم ولم يضيفوهم فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راق فقالوا نعم ولكنكم لم تقرونا فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا فجعلوا لهم على ذلك قطيعا من الغنم فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب فقام كأن لم يكن به قلبة فقلنا لا تعجلوا

حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأتيناه فذكرنا له ذلك فقال ما يدريك أنها رقية كلوا واضربوا لي معكم بسهم"[70].

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء هذا مع كون المحل غير قابل إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلا.

كما أشار ابن قيم الجوزية رحمه الله أن تلاوة الفاتحة شفاء للبدن وفق قواعد الطب. فالنفس الخبيثة التي تحمل في داخلها الخبث كالعين واللدغة وغير ذلك تؤثر في المحل القابل للتأثر بها. فإذا قابلت تلك الشرور والسموم نفسا تكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها وما تضمنته من التوحيد والتوكل والثناء على الله وذكر أصول أسمائه الحسنى وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه ولا على خير إلا نماه وزاده، دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية فحصل البرء.

فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده وحفظ الشيء بمثله فالصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقا وأمرا ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ولم تقو نفس الراقي على التأثير لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله سبحانه وتعالى.

وقد ساق العلماء التجارب التي تشهد بشفاء الفاتحة ومنها ما ذكره ابن قيم الجوزية رحمه الله أنه طال به المقام بمكة وكان يعرض له آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة منه وذلك في أثناء الطواف وغيره، فلما بادر إلى قراءة الفاتحة ومسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط وذكر أنه جرب ذلك مرارا عديدة وكان يأخذ قدحا من ماء زمزم فيقرأ عليه الفاتحة مرارا فيجد به من النفع والقوة ما لم يعهد مثله في الدواء والأمر أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين.

ولا يزال المتدبر ينهل من فوائد أم الكتاب ومنافعها ما لا يحيط به كتاب، نسأله سبحانه أن يهدينا لاتباع الحق والسير عليه إنه سميع مجيب.

الهوامش

---

[1] - صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، 297.

[2] - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، التحفة العراقية، المطبعة السلفية،القاهرة، الطبعة الثانية، 1399ه، ج1، ص 43.

[3] - البقاعي، ج1، ص 17-19.

[4] - ابن حجر العسقلاني، فتح البراي في شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دا رالمعرفة، بيروت، 1379هـ، ج9، ص 8.

[5] - فتح الباري، مرجع سابق، ج4، ص 315.

[6] - فتح الباري، مرجع سابق، ج2، ص 555.

[7] - فتح الباري، ج9، 87.

[8] - الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ج1، ص 176.

[-1] راجع في ذلك: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونسن، بدون تاريخ، ج1، ص 131.

[10] - أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ج1، ص 554.

[11] - الراغب الأصفهانين المفردات في غريب القرآن، ضبط ومراجعة: محمد عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 2001م، ص 372. وانظر كذلك محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج1، ص 131.

[12] - فتح الباري، ج2، 227.

[13] - محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق،ج1، ص 135.

[14] - فتح الباري، مرجع سابق، ج8، ص 156.

[15] - فتح البارين المرجع السابق، ج8، ص 156.

[16] - مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1421ه/ 2000م، ص 23.

[17] - ابن حجر العسقلاني، تلخيص الحبير، تحقيق: عبد الله هاشم المدني، طبعة المدينة المنورة، 1964م، ج1، ص 76.

[18] - محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج1، ص 144.

[19] - الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ج1، ص 168.

[20] - ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين، تحقيق: زكريا يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 238.

[21] - التفسير القيم لابن القيم، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفق، دار االكتب العلمية، بيروت، ص 32.

[22] - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، 1996م، ج1، ص 28.

[23] - أثبت هذه القاعدة في التدبر الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1409/ 1989م، ص 317.

[24] - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الثالث، ص 155، مادة حمد.

[25] - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، مرجع سابق، ج2، ص 325.

[26] - الرازي، مرجع سابق، ج1، 219.

[27] - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ضبط ومراجعة: محمد عيتاني، دار المعرفةن بيروت، الطبعة الثالثة، 2001م، 268.

[28] - ابن قيم الجوزية، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1973م، ج1، ص 162.

[29] - ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ج2، ص 246.

[30] - بتصرف عن الرازي، مرجع سابق، ج1، ص 218 وما بعدها.

[31] - محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، ج3، ص 341.

[32] - الرازين مرجع سابق، ج1، ص 234.

[33] - الراغب الأصفهاني، المفردات، مرجع سابق، ص 190.

[34] - الراغب الأصفاهاني، المفردات، مرجع سابق، ص 198.

[35] - محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج1، ص 173.

[36] - ابن قيم، مدارج السالكين، ج1، ص 8.

[37] - الراغب، مرجع سابق، ص 475.

[38] - صحيح مسلم، ج1، ص 59.

[39] - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج3، ص 273.

[40] - ابن تيمية، التحفة العراقية، مرجع سابق، ج1، ص 44.

[41] - بتصرف عن ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان، ج1، ص 62.

[42] - ابن قيم، مدارج السالكين، ج1، ص 64.

[43] - بتصرف عن ابن تيمية، التحفة العراقية، مرجع سابق، ج1، 63.

---

[44]- التفسي رالقيم، مرجع سابق، ص 90.

[45]- التفسير القيم، مرجع سابق، ص 96.

[46]- ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، مرجع سابق، ج1، ص 165.

[47]- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج1، ص 9.

[48]- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج1، ص 54.

[49]- الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 356.

[50]- محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج1، ص 184.

[51]- بتصرف عن ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج1، ص 76.

[52]- فتح الباري، ج10، ص 408.

[53]- محمد الطاهر بن عاشورن مرجع سابق، ج1، ص 186.

[54]- الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج1، ص 407.

[55]- ابن قيم، مدارج السالكين، ج1، ص 78.

[56]- ابن قيم، التفسير القيم، ص 69.

[57]- التفسير القيم، مرجع سابق، ص 74.

[58]- فتح الباري، ج1، ص 160.

[59]- ابن منظور، مرجع سابق، ج15، 353.

[60]- الراغب، مرجع سابق، ص 516، مادة هدى.

[61]- بجائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمع وتوثيق نصوصه: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، 1414هـ/ 1993م، ج1، ص 250 وما بعدها.

[62]- المرجع السابق، ج1، ص 253-254.

[63]- بدائع التفسير، مرجع سابق، ج1، ص 254-255.

[64]- بدائع التفسير، مرجع سابق، ج1، ص 226.

[65]- الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص 283.

[66]- محمد الطاهر بن عاشور، ج1، ص 191.

[67]- محمد الطاهر بن عاشور، ج1، ص 194.

[68]- بتصرف بسيط عن ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج2، 249 وما بعدها. وانظر بدائع التفسير، ج1، ص 233.

[69]- صحيح مسلم، ج1، 307.

[70]- صحيح مسلم، ج4، ص 1727.